

## حياة الإمام ابن عطية وآثاره الفكرية

جمال حجيرة

كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة 1

djamelhadjira@gmail.com

### الملخص:

الإمام بن عطية الأندلسي من كبار الفقهاء والمفسرين الذين عاشوا في بلاد الأندلس (481هـ-546هـ) في عصر المرابطين، كان قاضيا وفقهيا ومفسرا، كما أنه يعتبر شاعرا مفوها ومجاهدا شجاعا جاهد مع المرابطين ضد النصارى، فهو عالم عامل، وقد ترك ميراثا فكريا تلقته الأمة بالرضا والقبول، وهو تفسيره المسمى بالمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وقد تأثر به كبار المفسرين قديما وحديثا كأبي حيان والثعالبي وابن عاشور، وابن عطية ينتمي إلى المدرسة الأشعرية عقديا، والمدرسة المالكية فقهيا، وهما المذهبان المنتشران ببلاد الأندلس في ذلك الوقت

### Summary

Imam Ibn Attia al-Andalusi, a prominent scholar and commentator who lived in the country of Andalusia (481 e-546 e) in the era of Almoravidin, was a judge and jurisprudent and

interpreter, and he is a poet poet and courageous mujahideen struggling with the Almoravid against the Ansari, he is a working scientist, has left an intellectual legacy received by the nation Satisfied And was accepted by the editor of the short summary of the book dear, has been influenced by senior interpreters old and modern, such as the father of Hayyan and Thaalabi and Ibn Ashour, and Ibn Attiyah belongs to the school Ashariq Aqdia, and the school Malikia jurisprudence, the two schools spread in Andalusia at that time

#### مقدمة

قيمة كل أمة من الأمم تتجسد في حفاظها على مقوماتها الدينية والحضارية، ومن فروع المقومات الدينية والحضارية الاهتمام بذاكرة الماضي من علماء ومصلحين، فهم الطرف الأساسي في صناعة الأحداث، وبناء المقومات التي تنهض على أساسها الأمة ويستمر وجودها وتتجدد نضارتها، وإهمال الرجال الفاعلين في التاريخ الفكري والحضاري يعد مظهرا من مظاهر التخلف والانتكاسة، ودليلا على التنكر للذات وانفصام الشخصية الفكرية والاجتماعية، وحتى لا نسقط في هذه المتاهات، فإنه ينبغي علينا إحياء التراث الإسلامي بكل مستوياته، ومنها

تذكير الخلف برجال السلف، وبيان علمهم وسيرتهم، ونشر فضائلهم وأخلاقهم، حتى تكون نبراسا هاديا ومثالا موحيا يستهض الهمم، ويحرك العزائم ويقودها إلى نشدان معالي الأمور، ومن رجال السلف الذين يحتاجون إلى التذكير وإمارة اللثام ونفض الغبار عنهم الإمام عبد الحق بن عطية الأندلسي، فمن هو عبد الحق بن عطية؟، وكيف كانت نشأته؟، وما هي مؤلفاته؟، وما مذهبه الفكري والعقدي، ومن هم شيوخه وتلاميذه؟.

المطلب الأول: نشأته ومذهبه الفقهي والعقدي.

أولا: نسبه ومولده

هو عبد الحق بن غالب بن عطية بن عبد الرحمان بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد، بن خفاف بن أسلم بن مكتوم المحاربي<sup>(1)</sup>.  
نزل جده بقرية فِسلَة بضواحي مدينة غرناطة، فولد كثيرا وكثرت ذريته واستقرت في هذه المدينة الأندلسية<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: ابن الخطيب لسان الدين - الإحاطة في أخبار غرناطة - ت محمد عبد الله غناي - مكتبة الخانجي - القاهرة ط1 - 1973 - ج3 - ص 539.

(2) انظر: المصدر نفسه - ج3 - ص 539.

اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاد ابن عطية، فذهبت أكثر المصادر إلى أن ولادته كانت سنة 481هـ<sup>(3)</sup>، ومصادر أخرى تذكر أن تاريخ ميلاده كان سنة 480هـ<sup>(4)</sup>.

والذي أراه أقرب إلى الصحة هو سنة 481هـ، لأن هذا التاريخ هو الأكثر وروداً وتداولاً عند أصحاب التراجم، أما مكان ولادته فكان بمدينة غرناطة الأندلسية<sup>(5)</sup>.

### ثانياً: نشأته ورحلاته العلمية

البيئة الأندلسية كانت تتميز بالخصوبة المعرفية خاصة في علوم الشرع كالفقه والحديث والتفسير، وهذه البيئة تساعد على تكوين الشخصية المعرفية وتقدم المؤهلات اللازمة لذلك، ومن هنا يظهر أثر بلاد الأندلس المعرفي في نشأة الإمام ابن عطية، فعلمائها ومدارسها وكتبها كانت الموارد التي ينهل منها وَيُكَوِّنُ ذاته المعرفية التي اكتمل نبوغها فأصبح واحداً من علماء هذه البلاد وكبار المفسرين في العالم الإسلامي. ومن نسبه نجد أنه ينحدر من أصل عريق وأسرة فاضلة، إذ عراقه الأصل وكرم الأسرة من العوامل الدالة على فضل العالم ومكانته

<sup>(3)</sup> انظر: أحمد بن عميرة الضبي- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس-ت: روجية عبد الرحمان السويفي- دارالكتب العلمية- بيروت - ط1، 1997 - ص339.

<sup>(4)</sup> انظر: جلال الدين السيوطي - طبقات المفسرين- تحقيق: لجنة من العلماء بإشراف الناشر- دارالكتب العلمية - بيروت- ص50.

<sup>(5)</sup> انظر: ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - ج3 - ص 535.

الجليلة، فالعلماء الذين ورثوا عن الأنبياء العلم كأنهم أيضا ورثوا عنهم كرم الأصل وصفاء العرق، فأبوه كان عالما من علماء الأندلس وفقهيا من أجل فقهاءها<sup>(6)</sup>، وتظهر مكانته العلمية وشخصيته المعرفية القوية في تفسيره وفهرسه؛ حيث أبرز تحصيله للعلوم وقراءته للكاتب وسفره للحواضر الإسلامية<sup>(7)</sup>.

وكان أبوه يهتم بتدثئة ابنه عبد الحق في مرحلة الصغر، كما يحرص على إعدادة إعدادا علميا، ويظهر ذلك فيما كان يقدمه له من مختلف العلوم الشرعية كالتفسير والحديث، كما كان أيضا يلحقه بحلق الدروس التي يقدمها الشيوخ والعلماء في مدينة غرناطة<sup>(8)</sup>.

ولم يكتف ابن عطية بما وجدته في أسرته وبيئته الضيقة (غرناطة)، بل إنه رحل في طلب العلم إلى مدن أندلسية كثيرة، مما يعني أنه شغوف بالعلم وحرص على السير إليه والنبوغ في فنونه المختلفة، فالتقى في رحلاته خارج مدينته غرناطة بالشيوخ وأخذ منهم الإجازات في مختلف العلوم، وقرأ عليهم أمهات الكتب، ومن أمثلة ذلك سفره إلى مدينة قرطبة، فيقول في فهرسه الذي تحدث فيه عن شيخه ابن عتاب

(6) انظر ابن عطية - فهرس بن عطية- تحقيق: محمد الأجناف. محمد الزاهي- دار المغرب الإسلامي- بيروت- ط1 - 1986م- ص56.

(7) انظر: ابن عطية - فهرس ابن عطية، - ص 63.

(8) انظر: الذهبي- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام- ت: عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي- ط2، 1993م - ج34 - ص 74.

بن محسن الأموي: (( لاقيته بقرطبة وقرأت عليه كتاب الموطأ لمالك ابن أنس ))<sup>(9)</sup>.

أما خارج بلاد الأندلس، فأهل التراجم لم يذكروا من رحلاته في طلب العلم شيئاً، ولعل سر اكتفائه بالبيئة الأندلسية في طلب العلم هو ما كانت تعيشه هذه البلاد من حالة معرفية مزدهرة، في أغلب العلوم خاصة الشرعية منها .

### ثالثاً: المناصب التي تولاهما

من المناصب التي تولاهما ابن عطية منصب التدريس وهو منصب تولاه العلماء الأجلاء والدليل على أنه تولى هذا المنصب هو وجود تلاميذ له كما ذكر ذلك أهل التراجم<sup>(10)</sup>، فالتلميذ يستلزم وجود مدرس له حيث يستحيل وجود تلميذ من غير مدرس.

أما طبيعة الدروس التي كان يلقيها والمكان من مسجد أو مدرسة فذلك لم يتطرق إليه أهل التراجم، غير أن الشخصية العلمية لابن عطية التي تتسم بالموسوعية تجعلنا نهتدي إلى أن الدروس التي يلقيها كانت في مختلف علوم الدين كالحديث والتفسير والفقه واللغة.

<sup>(9)</sup> ابن عطية - فهرس بن عطية- ص 107.

<sup>(10)</sup> أنظر: ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - ج 3 - ص 541.

وتولى ابن عطية منصب القضاء بمدينة ألمرية، في شهر المحرم عام 529هـ<sup>(11)</sup>، وهذا المنصب ليس مطية سهلة ولا مركبا بسيطا في ذلك الوقت، بل لا يؤهل له إلا من أوتي في العلم رسوخا وشهد له أولو الفضل والصلاح بذلك.

ولما ولي القضاء اجتهد في تحري الحق ونصرة المظلوم، وربما كانت مكانته الجليلة في القضاء وحسن سمعته في هذا المقام هي التي جلبت له العداة والحسد لأنه صُرفَ عن مدينة مرسية واعتدي عليه لما قصدها لتولي قضائها<sup>(12)</sup>.

ويصف ابن فرحون القاضي ابن عطية بقوله: ((وكان غاية في الدهاء والذكاء والتهمم بالعلم، سري الهمة في اقتناء الكتب، ولما ولي توخى الحق وعدل في الحكم وأعز الخطة))<sup>(13)</sup>.

وكان لهذا المنصب الذي تولاه أثر بالغ في تكوين شخصيته الذاتية والمعرفية حتى ظهر ذلك في تفسيره، فمثلا: عند تفسير قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ

<sup>(11)</sup> انظر: ابن الحسن النباهي-تاريخ قضاة الأندلس- تحقيق: مريم قاسم طويل -دار الكتب العلمية-بيروت-ص 142.

<sup>(12)</sup> انظر: ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - ج 3 - ص 541.

<sup>(13)</sup> ابن فرحون - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب- تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان- دار الكتب العلمية- بيروت - ط1- 1996م - ص 269.

أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ))  
[النساء/135]، يقول (( فالليُّ - على هذا - مطل الكلام وجره حتى  
يفوت فصل القضاء وإنفاذه للذي يميل القاضي عليه، وقد شهدت  
بعض القضاة يفعلون ذلك والله حسيب الكل ))<sup>(14)</sup>.

في هذا الكلام يتطرق إلى معنى كلمة [ اللي ] على أنها المطل في  
الكلام حتى يفوت فصل القضاء، واستشهد بهذا البيان بما كان يراه في  
بعض القضاة من التماطل على الناس وتأخير فصل القضاء في أمورهم  
مما يفوت عليهم مصالحهم.

ومثل هذا الاستشهاد على كلام الله تعالى يدل على أن المناصب  
والوظائف التي يتقلدها الإنسان يكون لها أثر في تكوين شخصيته  
المعرفية وفهم معاني القرآن الكريم ومختلف النصوص الدينية  
والأدبية.

#### رابعاً: مذهبه الفقهي والعقدي

ابن عطية من أعيان الفقه المالكي<sup>(15)</sup>، وتظهر شخصيته الفقهية  
القوية في تصفح كتابه الفهرس، حيث إنه تحدث فيه عن شيوخه وما  
كان يقرؤه عليهم من الكتب الفقهية التي ألفها أعلام المذهب، ومن ذلك  
قوله عن شيخه ابن الطلاع: ((أجاز لي جميع رواياته بخطه وكتب لي في

<sup>(14)</sup> ابن عطية - المحرر الوجيز - ص 490.

<sup>(15)</sup> انظر: ابن فرحون - الديباج المذهب - ص 276.

شهر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين ... من ذلك كتاب الموطأ لمالك بن أنس))<sup>(16)</sup>.

وفي تفسيره المحرر الوجيز تظهر الثقافة الفقهية الواسعة التي يتميز بها، ولو جئنا لترتيب العلوم حسب كثرتها لوجدنا مادة الفقه تأتي بعد علم اللغة وعلم القراءات، وقد وظف الفقه في تفسيره بصورة واسعة مستعرضا في ذلك الأقوال المختلفة ومرجحا بينها ومقدما الأدلة على هذه الأقوال ومن ذلك مثلا حديثه عن لحوم البغال والحمير؛ حيث يستعرض حكمها والقول المحقق فيها والأدلة في ذلك فيقول: (( والبغال والحمير مكروهة عند الجمهور وهو تحقيق مذهب مالك رحمه الله، وحجة من ألحق الخيل بالبغال والحمير في الكراهية القياس، إذ قد تشابهت وفارقت الأنعام في أنها لا تجتر، وأنها ذات حوافر، وأنها لا أكراش لها، وأنها متداخلة في النسل، إذ البغال بين الخيل والحمير، فهذا من جهة النظر، وأما من جهة الشرع فإنها قرنت في هذه الآية وأسقطت الزكاة فيها))<sup>(17)</sup>.

<sup>(16)</sup> ابن عطية- المحرر الوجيز- ص91.

<sup>(17)</sup> ابن عطية - المصدر نفسه- ص 1085.

أما عن مذهبه الاعتقادي فيذكر ابن تيمية أنه ينتهي إلى أهل السنة، حيث يقول: ((وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة))<sup>(18)</sup>.

ولكنه في نفس الفقرة يذكر كلاما يفهم منه أن ابن عطية يسير على المنهج الاعتزالي في تحرير الأقوال والمسائل، فيقول: ((ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة))<sup>(19)</sup>.

وكلام ابن تيمية يقبل أو يرد من خلال تطبيق أصول المعتزلة الخمسة على أقوال ابن عطية، وهذا ما قام به الدكتور منصور كافي في رسالته متوصلا إلى نتيجة يقول فيها: ((فمن خلال البحث اتضح لي جليا أن المفسر على النقيض من تلك الأصول الاعتزالية، وثبت من خلال النصوص السابقة اتجاهه السليم البعيد عن البدع، والمتمثل في عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي عقيدة الحق والصواب، فتفسيره

<sup>(18)</sup> ابن تيمية- مقدمة التفسير- شرح: محمد بن صالح العثيمين - دار البصيرة- مصر - دط- ص

102.

<sup>(19)</sup> المصدر السابق - ص 102.

نقي كله من هذه التهمة، وقد برزت شخصيته العلمية المستقلة فيما يخص مسألة الاعتزال))<sup>(20)</sup>.

ويمكن أن نقدم دليلا آخر على براءة ابن عطية من انتمائه للمعتزلة، وهو موقفه الشخصي من هذه الفرقة؛ حيث إن أقوال المعتزلة هي أكثر الأقوال التي تعقبها في تفسيره ناقدا لها ومبينا فسادها، ولم يكثر من ذكر أقوال فرقة من الفرق الإسلامية كما أكثر من ذكر أقوال المعتزلة، وهذا يدل على أنه كان مخالفا لهم في الأصول الاعتزالية، ولو كان يسير على طريقتهم ويقتفي آثارهم لما تعقب أقوالهم بالنقد، ومن ذلك قوله عند تفسير الآية الكريمة: (( وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ))<sup>(21)</sup> [الصافات/ 96]: (( فمذهب جماعة من المفسرين إلى أن [ما] مصدرية، والمعنى "وأعمالكم"، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد وذلك موافق لمذهب أهل السنة في ذلك، وقالت فرقة: هي بمعنى الذي، وقالت فرقة: [ما] استفهام، وقالت فرقة: هي نفي بمعنى: "وأنتم لا تعملون شيئا في وقت خلقكم ولا قبله ولا تقدرتون على شيء، والمعتزلة مضطرة إلى الزوال عن أن تجعل [ ما ] مصدرية))<sup>(21)</sup>.

<sup>(20)</sup> منصور كافي - موازنة بين تفسيري المحرر الوجيز لابن عطية وزاد المسير لابن الجوزي - بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه - جامعة قسنطينة - السنة الدراسية (1998-1999م) - ص 29.

<sup>(21)</sup> ابن عطية - المحرر الوجيز - ص 1581.

فهو في كلامه عن المعتزلة يرد عليهم في مسألة خلق أفعال العباد ردا لغويا؛ حيث إنهم لا يجعلون [ ما ] في هذه الآية مصدرية، ولو جعلوها مصدرية لأفضى الكلام إلى أن تكون الأعمال مخلوقة لله تعالى.

وابن عطية يسير على قواعد المذهب الأشعري في تحرير المسائل العقديّة وبالأخص مسألة الصفات الإلهية<sup>(22)</sup>، وتحريره لمسألة الصفات الإلهية في تفسيره ينحو إلى التأويل معتمدا في ذلك على دلالة اللفظ وسياق الكلام، وهذا الاعتماد منشؤه ينطلق من أن الكلام ينقسم إلى حقيقة ومجاز، ومتى جاز حمل الكلام على ظاهره فلا يصير إلى المجاز، وحين يتعدى إجراء اللفظ على ظاهره يكون التأويل والمجاز هو الطريق لتقرير المعاني وتحقيق الدلالات، وهذا ما يتصوره الأشاعرة عموما في الصفات الإلهية، إذ إن إجراؤها على ظاهرها يقدر في التنزيه والكمال الإلهي فيسيرون في طريق التأويل والمجاز تحقيقا للتنزيه ودرءا للمماثلة الخالق للمخلوق.

(22) انظر: محمد بن عبد الرحمان المغراوي- المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات- مؤسسة الرسالة، ط1 (1420هـ - 2000م) ج2 ص860.

ومن أمثلة سير ابن عطية على قواعد المذهب الأشعري في تأويل الصفات الإلهية قوله عند تفسير الآية الكريمة: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر / 22]: (( وقوله تعالى: وَجَاءَ رَبُّكَ مَعْنَاهُ: وجاء قدره وسلطانه وقضاؤه ))<sup>(23)</sup>.

المطلب الثاني: شيوخه وتلاميذه.

كثرة الشيوخ والتلاميذ من العلامات الدالة على المكانة العلمية لشخص من الأشخاص، وهذه المزية تتحقق في الإمام ابن عطية، إذ إن شيوخه كما تلاميذه يصل عددهم إلى الكثرة.

أولاً: شيوخه

اتصل ابن عطية بشيوخه وأخذ عنهم أنواعاً مختلفة من العلوم الدينية واللغوية، وكان هذا الاتصال يتم بأربعة طرق هي: السماع والقراءة والمناولة والإجازة، وهذه الطرق تعد من أهم مسالك الرواية عند المحدثين<sup>(24)</sup>.

من أهم شيوخ الإمام ابن عطية حسب ترتيب الفهرس الذي ترجم فيه لشيوخه نجد:

أ- والده الحافظ الناقد أبو بكر غالب ابن عطية عبد الرحمان، كان فقيهاً عارفاً، ولي القضاء، جيد الدراية بفنون علمية مختلفة، كان

<sup>(23)</sup> ابن عطية - المحرر الوجيز - ص 1977.

<sup>(24)</sup> انظر: عبد الوهاب فايد - منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم - ص 40.

المصدر المعرفي الأول الذي نهل ابن عطية منه. توفي سنة 518هـ وعمره سبع وسبعون عاماً<sup>(25)</sup>.

ب- الفقيه الإمام الحافظ أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني، سكن قرطبة، وكان أحد الذين تولوا رئاسة الأندلس في علم الحديث، إذ كان عارفاً بعلل الحديث ورجاله، عالماً بالنحو والأدب والشعر. توفي سنة 498هـ<sup>(26)</sup>.

ج - الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن فرح القرطبي، يعرف بابن الطلاع، القرطبي الأصل، كان من أهل العلم والصلاح، عالماً بالفتيا، حافظاً للأراء والأقوال، له مؤلفات، منها مؤلف حسن في الوثائق، توفي سنة 479هـ<sup>(27)</sup>.

د - الشيخ الجليل أبو محمد عبد العزيز بن عبد الوهاب بن أبي غالب القيرواني، كان من الشيوخ الفضلاء، له علو في فن الرواية، سمع وقرأ على العلماء، توفي سنة 495هـ<sup>(28)</sup>.

هـ - الشيخ الجليل الصالح المقري أبو الحسن علي بن خلف ابن ذي النون، بن أحمد بن عبد الله بن هذيل بن حبيش بن سنان العباسي،

<sup>(25)</sup> ابن عطية - فهرس بن عطية - ص 59.

<sup>(26)</sup> المصدر السابق - ص 77.

<sup>(27)</sup> المصدر نفسه - ص 91.

<sup>(28)</sup> المصدر نفسه - ص 94.

كان على قدر عال من التدين، له رحلة إلى المشرق، ثمّ رجع إلى الأندلس، أقرأ القرآن مدة من الزمن طويلة، في جامع قرطبة، من خيره وصلاحه حفظت له دعوات ظهرت إجابتها، توفي بقرطبة سنة 498هـ<sup>(29)</sup>.

و- أبو الحسن علي بن أحمد بن كرز، كان قارئاً لكتاب الله، مجوداً له، قرأ بالقراءات السبع، سكن غرناطة ما يقارب من 30 سنة، توفي سنة 510هـ<sup>(30)</sup>.

وكان لهؤلاء الشيوخ وغيرهم أثر بالغ في تكوين الشخصية المعرفية للإمام ابن عطية، وعلى أساسها أصبح من أصحاب العلم وكبار المفسرين في الأندلس، ويمكن بيان الأثر المعرفي لشيوخه في مؤلفه: المحرر الوجيز والفهرس.

- في المحرر الوجيز أورد ابن عطية أقوالاً لشيوخه في توضيح معاني الآيات التي يتناولها بالتفسير، وأكثر الشيوخ الذين وظف أقوالهم واستشهد بهم هو أبوه الذي ذكره في مواضع مختلفة من تفسيره، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ((مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)) [الكهف/

<sup>(29)</sup> المصدر نفسه - ص 96.

<sup>(30)</sup> ابن عطية - المحرر الوجيز - ص 118.

[51]، يورد ابن عطية قولاً عن أبيه بأن المضلين الذين يقصدهم الله في الآية هم طوائف المنجمين وأهل الطبائع والمنتحكمين من الأطباء<sup>(31)</sup>.

وإلى جانب أبيه ذكر في تفسيره بعض شيوخه الذين كان لهم دور بالغ في تكوينه المعرفي<sup>(32)</sup>، فذكر أبا علي الحسيني ابن محمد الغساني في حديثه عن عدة النساء وذلك عند تفسير قوله تعالى: "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَدْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ" [البقرة/235].

وذكر شيخه أبا الحسن ابن الباذش، وذلك عند تفسير قوله تعالى: "وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ" وَإِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" [التوبة/03]، ورأي أبي الحسن الذي أورده

(31) أنظر: المصدر السابق - ص 1197.

(32) أنظر: المصدر نفسه - ص 209.

رأي لغوي يعرب فيه لفظ [الرسول] على أنه مرفوع بالابتداء وخبره محذوف، وتقدير الكلام: [ورسوله بريء منهم]<sup>(33)</sup>.

- في الفهرس أيضا تظهر بوضوح الشخصية العلمية لابن عطية، ويظهر الأثر الكبير لشيوخه في تكوينها، فقد ترجم لثلاثين شيخا من شيوخه الذين أخذ عنهم العلوم الدينية واللغوية، فمثلا في ترجمته لشيخه أبي عبد الله ابن أبي غالب القيرواني يذكر ما أخذ عنه من الإجازات في مختلف الكتب وذلك مثل: موطأ الإمام مالك، والجامع الصحيح للإمام البخاري، وكتاب التمهيد للقاضي أبي بكر الباقلاني.

ثانيا: تلاميذه

تلمذ على يد الإمام ابن عطية شيخ كثير من أهمهم:

أ - أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي، عرف مختصا بفن الطب، وله فيه تقييد وتهذيب مفيد، مع العلم والدراية بالعلوم الأخرى، كتب عن جده لأمه القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية، توفي سنة 598هـ<sup>(34)</sup>.

<sup>(33)</sup> أنظر: ابن عطية - المحرر الوجيز - ص 825.

<sup>(34)</sup> أنظر: المقري أحمد التلمساني - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - 1988م - ج 2 - ص 338.

ب- أبو جعفر أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبي الزاهد، يعرف بابن الإقليشي صاحب كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم، كانت له رحلة إلى المشرق، ولما قفل راجعا إلى موطنه أدركته الوفاة، يروى عنه أنه كان عالما عاملا، متصوفا شاعرا، متقدما في الصلاح والزهد، والعزوف عن الدنيا وأهلها<sup>(35)</sup>.

ج - عبد الله بن محمد بن عبيد الله الحجري: كان فقيها ومحدثا، اشتغل بفن الرواية، عرف بالزهد والصلاح، يعتبر من زمرة العلماء الفضلاء، توفي سنة 591هـ<sup>(36)</sup>.

د- محمد بن جعفر بن أحمد بن حميد أبو عبد الله، كان قاضيا بمدينة بلنسية، يجيد علم القراءات والنحو والأدب مع حيازة التقدم والسبق فيها، أقرأ القرآن والعربية بمدينة مرسية فترة من الزمن، توفي سنة 586هـ، بمدينة مرسية<sup>(37)</sup>.

المطلب الثالث: شخصيته العلمية وأثاره الفكرية.

أولا: شخصيته العلمية.

في تفسير المحرر الوجيز تظهر الشخصية العلمية لابن عطية، فهو من خلال هذا المؤلف يبدو إماما في فنون علمية مختلفة، عارفا بمسائلها وجزيئاتها، متبحرا في أعماقها، ومن هذه العلوم التي يدركها

<sup>(35)</sup> انظر: المصدر نفسه - ج 2 - ص 598.

<sup>(36)</sup> انظر: الضبي - بغية الملتمس - ص 293.

<sup>(37)</sup> الضبي - بغية الملتمس - ص 56.

الناظر لأول وهلة في تفسيره علم اللغة وعلم القراءات، فمثلا في بيان معاني الألفاظ يبين الفرق بين الريح كلفظ مفرد والرياح كلفظ جمع، فيعتبر الأولى تستخدم للعذاب لأن المفرد كقطعة واحدة، أما الثانية وهي لفظ الرياح فتستخدم للرحمة لأن الجمع يعني التفرقة، والرياح حين تكون متفرقة تدل على اللطافة، أما حين تكون كتلة واحدة فتدل على القوة والشدة، لكن لفظ الريح بالإفراد جاءت في القرآن لتدل على الرحمة، ومن ذلك قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَّيْنِ يَهُمُ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [يونس / 22]، وقد وجه ابن عطية معنى كلمة الريح في هذه الآية توجيها حسنا فقال: (( والريح إذا أفردت فعرفها أن تستعمل في العذاب والمكروه، لكنها لا يحسن في البحر أن تكون إلا واحدة لا نشرا، فقيدت المفردة بالطيب فخرجت عن ذلك العرف وبرع المعنى))<sup>(38)</sup>.

وإذا كان ابن عطية إماما مجتهدا وعالما ناقدا للأقوال فإن شخصيته المعرفية تدور في فلك الرصيد المعرفي لبيئته وزمانه، إذ إنه كان يستمد معارفه من بيئته ومما توصلت إليه علوم عصره، فمثلا عند تفسير الآية الكريمة: وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ١٩ وَتُحِبُّونَ أَمْوَالَ حُبًّا

(38) ابن عطية - المحرر الوجيز - ص 904.

جَمًّا [الفجر / 20]، يبين أن الأرض مسطحة وليست كروية، ويعزي هذا الرأي إلى العلم والشرع فيقول: (( وظاهر هذه الآية أن الأرض سطح لا كرة وهو الذي عليه أهل العلم، والقول بكريتها - وإن كان لا ينقب ركننا من أركان الشرع - فهو قول لا يثبتته علماء الشرع ))<sup>(39)</sup>.

وفي مؤلفه الثاني الفهرس الشيء الكثير الذي يفصح عن حقيقة الشخصية الفكرية لابن عطية، والتي تتمثل أساسا في شيوخه الكثيرين الذين أوصلهم إلى الثلاثين ممن أخذ عنهم العلم والإجازات وقرأ عليهم الكتب<sup>(40)</sup>.

ومن أقوال أهل التراجم عن الشخصية العلمية والمكانة الفكرية لابن عطية، يقول ابن الخطيب: (( كان عبد الحق فقيها عالما بالتفسير والأحكام، والحديث والفقه والنحو والأدب واللغة، مقيدا حسن التقيد له نظم ونثر ))<sup>(41)</sup>.

وقال عنه الإمام الحافظ الذهبي: (( وكان فقيها عارفا بالأحكام، والحديث والتفسير، بارع الأدب، بصيرا بلسان العرب، ذا ضبط وتقيد،

<sup>(39)</sup> المصدر نفسه - ص 1973.

<sup>(40)</sup> أنظر: ابن عطية - فهرس ابن عطية - حيث تحدث فيه عن شيوخه وما أخذ عنهم من إجازات ورحلاته إليهم، وأهم الكتب التي قرأها عليهم.

<sup>(41)</sup> ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - ج 3 - ص 540.

وتحرو وتجويد وذهن سيال، وفكر إلى موارد المشكل ميال، ولو لم يكن له إلا تفسيره الكبير لكفاه))<sup>(42)</sup>.

ووصفه ابن عُمَيْرَة الضبي قائلاً: (( فقيه حافظ، محدث مشهور، أديب نحوي شاعر، بليغ كاتب، ألف في التفسير كتاباً ضخماً، أربى فيه على كل متقدم ))<sup>(43)</sup>.

ولمكانة ابن عطية وقيمته العلمية، اعتبره ابن فرحون من أعيان الفقه المالكي، ولذلك أورد له ترجمة في الديباج المذهب<sup>(44)</sup>.

ثانياً: مؤلفاته وآثاره الفكرية.

ليس ابن عطية من أولئك العلماء الذين يعرفون بغزارة التأليف، وكثرة الإنتاج الفكري، بل المنقول عنه من مؤلفاته كتابان، الأول في التفسير والثاني عبارة عن كتاب ترجم فيه لشيوخته، وضمنه مروياته يعرف بفهرس ابن عطية، وقد ترجم في هذا المؤلف لثلاثين شيخاً من شيوخته وتحدث عما أخذه عنهم من العلوم والإجازات وما قرأ عليهم من الكتب خاصة في علم الفقه والحديث، حيث كان هذان العلمان من أكثر العلوم التي قرأها على الشيوخ الذين ترجم لهم في فهرسه، مما يدل على أن ابن عطية فقيه ومحدث كبير، وقد أنهى كتابة فهرسه في أواخر

(42) الذهبي - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - ج 34 - ص 74.

(43) الضبي - بغية الملتبس - ص 339.

(44) انظر: ابن فرحون - الديباج المذهب - ص 276.

عمره سنة 533هـ، حيث جاء في آخر هذا الكتاب: (( انتهت فهرست الفقيه المشاور القاضي أبي محمد عبد الحق ابن عطية رضي الله عنه وعن أسلافه بمنّ منه، وكان الفراغ منها يوم الأحد التاسع من رجب الفرد عام ثلاثة وثلاثين وخمس مائة ))<sup>(45)</sup>.

وإذا عرف ابن عطية بالفهرس والمحرف الوجيز وهما الكتابان اللذان نقلهما أهل التراجم، فهذا لا يدل على قلة الباع في التأليف، ولا جمود في السيالة الذهنية، لأن عدم الضخامة في التأليف لا يعني بالضرورة وجود قصور معرفي وضيق أفق.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن ابن عطية: قد يكون ذا تأليف كثيرة، ولكنها ضاعت بسبب الأحداث الدامية التي مرت بها بلاد الأندلس وأحرقت من جراء النكبات المتلاحقة التي أصابت المسلمين من قبل النصارى، وذلك أيام سقوط دولتهم وضياع بلادهم وطردهم من أوطانهم<sup>(46)</sup>.

وفي تفسير المحرف الوجيز تظهر القدرة الكبيرة لابن عطية على حسن التأليف وجودة الصياغة، فالقارئ لتفسيره يلاحظ دقة العبارة وحسن التفهيم والإيجاز والبعد عن الغموض والتشعب، مما يجعل منه مؤلفا

<sup>(45)</sup> ابن عطية - فهرس ابن عطية - ص 142.

<sup>(46)</sup> أنظر: عبد الوهاب فايد - منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم - الهيئة العامة لشؤون المطابع الأزهرية - القاهرة - 1393هـ - 1973م - 85.

كبيراً لم يشرع في التأليف إلا بعد استكماله لأدوات وقواعد هذا الفن، ولعل هذا ما حمل الإمام الذهبي على القول: (( ولو لم يكن له إلا تفسيره الكبير لكفاه ))<sup>(47)</sup>.

وبالإضافة إلى رسوخه في علوم الدين واللغة، فهو شاعر بليغ يجيد الوصف ويحسن التعبير، وقد نقل ابن الخطيب مجموعة من أشعار ابن عطية في كتابه الإحاطة منها قوله:

وليلة جيتُ الجَدَعُ فيها مرتدياً\*\* بالسيف أسحب أذيلاً من الظُّلْمِ  
والنجم حيران في بحر الدجى غَرِقُ\*\* والبدر في طَيْلَسَانَ الليل كالعلم  
كأنما الليل زَنَجَى بكاهله\*\* جُنْحٌ فَيَنْغَبُ أحياناً له بدم<sup>(48)</sup>.

وهذا النموذج من شعره يوحي إلى وجود خيال واسع في قريحته وتأثره بمظاهر الكون من حوله، واستخدامها كمادة فنية في التعبير عن أحاسيسه ومشاعره، وهذه الذاتية والخيال الواسع لا نلمسه في تفسيره المحرر الوجيز الذي يتسم بالدقة العلمية والموضوعية في تفسير آيات القرآن الكريم، أما هذه الأبيات الشعرية فإنها تظهر وجهاً آخر من شخصيته العلمية، وتبين علاقته مع الوجود المادي من حوله على أنه مصدر استلهام للمشاعر والأفكار.

(47) الذهبي - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - ج 34 - ص 74.

(48) ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - ج 3 - ص 540.

ومما قاله في قصيدة يندب فيها شبابه:

سقيا لعهد شباب ظَلْتُ أَمْرَحُ \*\* في ريعانه وليالي العيش أسحار  
أيام روض الصبا لم تَدْ أَعْصَنَهُ \*\* ورونق العمر غص والهوى حمار  
والنفس تركض في تضمين ثرَّتها \*\* طرفا له في زمان اللهو إحضار  
عهدا كريما لبسنا منه أردية \*\* كانت عيوننا ومحيت فهي آثار  
مضى وأبقى بقلبي منه نار أسمى \* \* كوني سلاما أو بردا فيه يا نار<sup>(49)</sup>.  
المطلب الرابع: جهاده ووفاته.

أولا: جهاده

لما كان ابن عطية في مقتبل العمر لم تكن صلته بالمرابطين صلة طيبة بل لحقه من قبل حكام المرابطين إهانة ومضايقة نظرا لشدته ومنافسته لأولئك الحكام، وقد نفي أبوه في ذلك الوقت ثم أعيد إلى غرناطة، وهذا لشدة بأسه هو الآخر على دولة المرابطين، ولكن بمرور الأيام تغير رأي عبد الحق ابن عطية وأبيه في شأن دولة المرابطين وتغيرت حقيقتها في تصورهما، فما لبثا أن توطدت صلتهما بالمرابطين وتوثقت علاقتهما بهم، وهذا بسبب ما كان يتميز به المرابطون من جهاد في سبيل الله والدفاع عن الأندلس وصد الأعداء عنها، ومن هنا انخرط ابن عطية مع جيوشهم للجهاد في سبيل

<sup>(49)</sup> ابن الخطيب - المصدر السابق - ج 3 - ص 540.

الله وصد العدوان عن بلاد الأندلس. وقد شارك في معارك عديدة مع جيش المرابطين ومنها سيره معهم للدفاع عن مدينة سرقسطة التي قصدها ملوك الإفرنج الذين ضربوا الحصار عليها سنة 511هـ<sup>(50)</sup>، كما شارك أيضا مع جيوش المرابطين في غزوة طليبة، التي يقول عنها في معرض ترجمته لشيخه الجياني: (( لقيته في جيان في نهوضي إلى غزوة طليبة سنة ثلاث وخمس مائة فأجازلي جميع رواياته ))<sup>(51)</sup>.

ومن كثرة غيابه عن بيته ومشاركته مع جيوش المرابطين في الجهاد ضد الأعداء الذين يريدون طرد المسلمين من الأندلس، كتب إليه والده أبياتا يتشوقه فيها قائلا:

يا نازح الدار لم تجعل من نزحت \*\*\* دموعه طرقات الهم والفكر  
غابت شخصك عن عيني فما \*\*\* ألفت من بعد مرآك غير الدمع والسهل  
قد كان أولى جهاد في مواصلي \*\*\* لاسيما عند ضعف الجسم والكبر  
اعتل سمعي وجال الضر في بصري \*\*\* بالله كن أنت لي سمعي وكن  
بصري<sup>(52)</sup>.

(50) أنظر: عبد الوهاب فايد - منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم - ص 67.

(51) ابن عطية - فهرس ابن عطية - ص 137.

(52) المصدر نفسه - ص 14.

## ثانياً: وفاته

توفي ابن عطية بمدينة لُورقة، التي استقر بها بعد ما طرد من مدينة مرسية واعتدي عليه، وقد اتجه إليها لتولي قضائها<sup>(53)</sup>.

أما تاريخ وفاته فهو محل اختلاف بين أهل التراجم، فالإمام السيوطي في الطبقات يقول: (( إنه مات في الخامس عشر رمضان سنة إحدى وأربعين وخمس مائة 541هـ ))<sup>(54)</sup>.

وأما ابن عميرة الضبي فيقول: (( وتوفي بمدينة لورقة عام اثنين وأربعين وخمس مائة 542هـ، وقيل سنة إحدى وأربعين ))<sup>(55)</sup>، وأما ابن الخطيب وحاجي خليفة، فيرون تاريخ وفاته عام 546هـ<sup>(56)</sup>.

## الخاتمة

ابن عطية من علماء الإسلام الذين لم يشتغلوا بجانب من جوانب الحياة على حساب الجوانب الأخرى، ولكنه يقدم لنا نموذجاً للعالم المتوازن في الحياة، فهو من خلال نشأته وحياته اشتغل بالقضاء والتدريس والجهاد في سبيل الله، وهذه الجوانب تدل على التوازن، في وقت كان للتصوف والانعزال وتغليب جانب من الحياة على غيره من

(53) ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - ج 3 - ص 54.

(54) السيوطي - طبقات المفسرين - ص 50.

(55) الضبي - بغية الملتبس - ص 339.

(56) أنظر: ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 3، ص 541، حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية ببيروت، لبنان 1992م - ج 2 - ص 1613.

الجوانب الأخرى أثر بالغ في الحياة الإسلامية، وابن عطية قليل الترحال، بل إنه لم يؤثر عنه أنه غادر بلاد الأندلس، والعلماء يرتحلون في المقام الأول لطلب العلم، وهذا ما يدل على أن الأندلس في تلك الحقبة كانت تملك فائضا معرفيا وحضاريا، وهو ما جعل عالما جليلا ومفسرا كبيرا كابن عطية يستقر فيها طوال حياته، فدراسة الحياة الأندلسية في تلك الحقبة هي دراسة للتألق المعرفي والراقي الفكري، وهذا ما نلمسه في ابن عطية المفسر الذي جاء محرره وجيزا ودقيقا في العبارة، وكأنه يقدم زبدة وخلاصة التفاسير الإسلامية منذ نشأتها، ويقول بلسان حاله إن هذا المحرر يعد قمة ما وصل إليه التفسير الإسلامي من حيث التحرير والتأصيل والدقة.

والشخصية المعرفية لابن عطية لم تنكفيء على ذاتها، ولكنها تركت أثرا في كبار العلماء والمفسرين الذين جاؤوا بعده، فهو ليس مفسرا فقط ولكنه مدرسة في التفسير فالقرطبي وأبو حيان والثعالبي وبن عاشور وغيرهم من المفسرين تأثروا بالمحرر الوجيز واغترفوا من معينه مستشهدين به في المسائل والأقوال ومرجحين لبعضها بناء على ما ذهب إليه بن عطية.